معركة القصة في حاضر الادب الانكليزي

بقلم الدكتور عمر حليق

على شاطىء المحيط الاطلنطي هذه الايام جدل حول مستقبل القصة في الادب الغربي المعاصر . وهذا الجدل تقليد سنوي يثيره واحد او اكثر من نقاد الادب الانكلوسكسوني يستعرضون فيه نتاج العام ويزنونه بموازين النقد الفني والتاريخ الادبي .

والقصة لون من الانتاج الفني لم يكتمل نموه – بل لم يولد بعد – في حاضر الادب الغربي ، مع وفرة المادة ، وصلاح البيئة واتساع الاقتباس والاستعارة من الآداب الانسانية الاخرى التي يتطعم بها اليوم في بطء ادباء العرب الموهوبون. فلا بأس اذن من ان نقدم لقراء « الآداب » نماذج من هذه الاراء التي تشترك في معركة القصة في اوساط الادب الانجليزي ، ولعل في هذا الاستعراض ما يكشف لادباء الطليعة العرب عن هذه الفترة من حاضر القصة الاوروبية في اطار النقد الفني والتاريخ الادبي ، كما سجله نفر من ائمة النقاد وكتاب القصة والشعراء في بريطانيا وامريكا .

فقد اثار النقاش مقال مدروس كتبه الاديب البريطاني المعروف « سير هارولد نيكولسون » في الصفحة الادبية من جريدة « لندن ابزيرفر » في اوائل اكتوبر المنصرم ، نعى فيه القصة الانجلوسكسونية بسبب تدهورها الفني ، بالقياس الى تراث « شارلز ديكنز » و « جين اوستن » و « ثاكاري » في بريطانيا و « بالزاك » و «ستندهال » في فرنسا و « دوستويفسكي » و « ترجنيف » و « تولوستوي » في روسيا .

وشرح السير هارولد اسباب هذا النعي ، فأشار الى ان ادب التراجم قد حل المكانة التي كانت تتبوأها القصة في القرن الماضي . وذلك لان فن القصة لا يزدهر الا في فترات الهدوء والدعة التي تعتري المجتمعات من جيل الى جيل . ففي مثل هذه الفترات يسرح الناس في الوان من المعاش ساكنة موفورة ، لا يداخلها الشغب او يتسرب اليها التوتر والقلق . فيندفع الكتاب الموهوبون الى توجيه قرائحهم في استنباط عوالم وحوادث مليئة بالمغامرات الخيالية ، سيان أكانت مواضيع القصة العواطف الانسانية ، ام الوان اخرى من حياة الناس فرادى ومجتمعين .

ويمضي السير هارولد في نعيه للقصة الانكليزية المعاصرة فيصر على ان سنوات ما بعد الحرب العالمية الاخيرة – هي سنوات عجاف ، الدعة والسكينة والرخاء المستقيم ليست من طبائعها . وجماهير القراء في مثل هذه السنوات لا رغبة لديهم في التعرف على الوان خيالية من «ملح التجارب وبهارات الالم وعرق الجبين »، ما دام هذا كله يكتنفهم صباح ومساء . فاصبح لا مفر لأدب القصة في مثل هذه السنوات من ان ينتج الناس مادة للتسلية ، سطحية الطابع شحيحة العمق لا تثير في القارىء الا متعة عابرة لا يرضى عنها الابداع الادبي الخالد ، فهي لذلك لا تحسب في عداد التراث الادبي .

وكان من الطبيعي ان يثير هذا الرأي المتطرف حفيظة الادباء والنقاد. فهو رأي فيه تناقض مفضوح – استعرضه الكاتب الامريكي المعروف (دونالد آدمز) كاتب الافتتاحية في الملحق الادبي الاسبوعي لجريدة النيويورك تايمس .

وقال (آدمز) ان العصر الذهبي للقصة الاوروبية – عصر (بلزاك) و (ستندهال) و (ديكنز) و (دوستويفسكي) و (ترجنيف) – هو القرن التاسع عشر. وهو حقبة من تاريخ الانسانية لم يكن طابعها الدعة والهدوء والسكينة . وقصص (دوستويفسكي) و (تولوستوى) لم تكن نتاج عقل ومجتمع هادىء امين . فقد كانت روسيا القيصرية آنئذ تعيش على قلق وتوتر وعلى شفا الهاوية . وقد وضع (ستندهال) قصصه الخالدة واشباح الحروب النابوليونية تلاحق الشرق والغرب . وقد سجل (شارل ديكنز) صوره الخالدة عن الانسانية التعيسة في عصر كانت المساوىء الاجتماعية تعيث في بريطانيا فساداً .

وتناول نقاد آخرون رأي السير هارولد ففندوه على ضوء تاريخ الاداب الانسانية وعلى ضوء المنطق السليم. فقال أحدهم – وفي هذا القول رد على ما يدعيه بعض شيوخ الادب العربي في مصر – ان من الهراء ان تنتظر فن القصة – والابداع الفني اجمالا – ان يزدهر في جو تسوده الحرية التامة : حرية الرأي والمشورة والتحرر من الخوف والفاقة والجهل . فهذه الحرية لم تتوفر كلها او لاكثرها في اي عصر من العصور ، واذا توفرت فانما ذلك في عوالم فلكية أخرى . فسر الابداع في فنون الادب ان يوفر الاديب المطبوع لنفسه وللقارىء صوراً والواناً من التعبير تعكس تجاربه وتجارب الناس، في قوالب فنية تجد السبيل الى قلوب الناس وعقولهم رغم قيود الحكام وبطش الرقابة . فالانباء الادبية تطالعك كل يوم بالوان من الابداع الفني الصادق الصريح يوفره الادباء الموهوبون وراء ما يسمونه بالستار الحديدي في مناطق الحكم المطلق ، وفي ظل القيود الدينية والسياسية الصارمة ، في بعض المجتمعات الكاثوليكية والاسلامية في الشرق والغرب . وبعض قصص (ايليا اهرنبرغ) الروسي مثال على ذلك. ومن امثلة ذلك ايضاً الروائع الاولى للكاتب الاسباني (سانتانايا) .

واشترك في معركة القصة في بريطانيا واميركا نفر من محترفي القصة. فقال فيليب تونبي :

« انا مع السير هارولد في ان مستوى القصة الانجلوسكسونية ليس على ما يرام . ولكن فن القصة لم يمت ولن يموت ». فأدباء الطليعة الذي قل ان يلقى انتاجهم الرواج الذي يستحقه ، منهمكون الآن في بعث فني جديد

النشاط الثقافي في الغرب

للقصة ، بعث تحمله الى الاوساط الادبية مجلات ضئيلة التوزيع ١ يصدرها نفر من ادباء الشباب الانجلوسكسوني من مهاجرهم في الحي اللاتيني بباريس ومن ازقة روما الخالدة . وجمهرة قرائهم زبدة ضئيلة العدد من عشاق الفن الرفيع. فتبعة القصور في تأخر مستوى القصة اليوم يقع على دور النشر خاصة وعلى جمهرة القراء لاعلى فن الابداع القصصي .

وأصر (فيليب تونبي) على ان فن القصة لن يموت رغم انه دخيل حديث على فن الادب ، فقد سبق الشعر والنثر والدراما . فرد محرك المعركة (السير هارولد نيكولسون) بأن القصة في الادب الاوروبي خلال المئتي سنة المنصرمة قد استوعبت كل ما في النفس البشرية من عقد ومشاكل، من ترح وفرح ، من بؤس وسعادة فلم يبق لدى القصة من جديد او طريف تعالجه . فاجاب (تونبي) – وهو غير ارنولد تونبي المؤرخ البريطاني الشهير – ان تقلبات النفس الانسانية ودخائلها ومعاقل الارادة البشرية مزيج غريب من الاحساس والوجدان والشعور العجيب المعقد ، ولا يزال لدى الابداع الفني ، والقصصي على وجه التخصيص مادة سخية وافرة في هذا كله .

ودعت جريدة (لندن اوبزرفر) نفراً من ائمة الادباء المشاركة في معركة القصة . فأكد الشاعر الانجليزي الملهم (لويس ماكنيس) أن القصة في حاضر الادب الانجلوسكسوني ابعد ما تكون عن الموت . فهي حية ترزق ومستواها طيب رفيع المكانة . ورفعة مستوى القصة هو المسؤول عن المصاعب التي يواجهها اليوم الشعر وادب الرواية . وشبه (ماكنيس) القصة بجبار عنيف يهضم كل شيء ويستوعب اي لون من الوان التعبير الادبي . والمشكلة الجوهرية لفن القصة – في رأي هذا الشاعر – كونها في عوز لتحديد القوالب الفنية والموضوعية التي يمكن للكاتب ان يقيد بها جشع هذا الجبار العنيف .

ودخل في النقاش الناقد الانجليزي الشهير (ادوبر ميوبر) فشك في رأي (السير هارولد نيكولسون) بأن ادب القصة لا يزدهر الا في فترات الدعة والسكينة . فقال (ميوبر) ان القصصي الموهوب يكتب لا ليروح عن نفسه ويلتمس التعبير عن مشاعره واحساساته الخاصة ، وانما يفعل ذلك لأنه يعي في نفسه وفي البيئة المحيطة به وفي العلاقات الانسانية اجمالا صوراً والوانا ومواقف وأحداث لا مفر للموهبة الفنية من ان تدلف لها وان تعالجها بالوصف تارة والتحليل تارة اخرى . وكلما اشتد احساس القصصي بعالمه الخاص وبدنيا الناس ، كلما اقترب فيه فنه من مجال الشعراء . فالانتاج القصصي الرفيع كالتعبير الشعري المتين لم يمت ولن يموت . ومضى (ميوبر) يقول : ان فن الابداع القصصي لن يموت الى ان تموت في بني آدم الرغبة في التعرف على انفسهم وعلى مشاعرهم واحساساتهم وعلى احوال جيرانهم وعلى الناس اجمعين ، في اسلوب يفوق في بلاغته وعمقه وطرافته وجديته احاديث الفضوليين من عانس او ثرثار .

واتسع الجدل حول هذا الموضوع الطريف فشارك فيه المستر (ف . س. بريتيشت) المحرر الادبي لمجلة (نيوستيتان آند نيشن) وهو أديب له نفوذه على طرفي المحيط الاطلسي في بريطانيا وفي العالم الجديد . فكتب يلفت النظر الى ان مستوى القصة في الادب الانجلوسكسوني يعوزه لون من البعث والتجديد . وهذا العوز مرده حاجة المجتمع الانجلوسكسوني الى مثل هذه الثورات الاجتماعية والفكرية والعاطفية التي تجتاح آسيا وافريقيا والشرق الاوسط . فشخصيات القصة الانجلوسكسونية ومجالات صراعهم العاطفي والفكري والوجداني شخصيات ومجالات عتيقة. وتاريخ الادب القصصي في بريطانيا (وفي اوروبا) قديم . ومكتبة القصة هناك غنية وافرة .

والبعث القصصي الجدير بأن يلفت النظر ويسترعي الاهتمام والاقتباس يصدر الينا الآن من هذه الجماعات الانسانية التي في آفاقها متسع للكر والفر وللتطورات الفكرية والاجتماعية الشاملة – في آسيا وفي افريقيا .

وضرب المستر (بريتشيت) مثلاً بعدد من القصص الجديدة الطافحة بألوان غريبة من التجارب الانسانية ، كتلك التي كتبها بالانجليزية ادباء من ظلام القارة الافريقية ، زنوج لسانهم انجليزي وتجاربهم افريقية، صينيون وهنود واندونيسون – اساليبهم الابداع الفني مقتبساً من الغرب ولكن انفعالاتهم وخواطرهم واحساساتهم من هذه الصور والاشخاص والاحداث التي تعيش في اجواء عجيبة متناقضة في قرى الهند وفي انهر الصين وفي مضايق الملايو وفي ادغال كينيا واوغاندا وفي مناجم الترنسفال ١ .

انسانية بسيطة ومعقدة في آن واحد ، فيها لقلم القصصي نماذج حية للابداع لم تتوفر بمثل هذه الطرافة والغرابة لامثال (بلزاك) و(دستويفسكي) و (ديكنز) . انسانية ما اكثر تعداد صورها واحداثها واشخاصها في قرى الشام واحياء القاهرة ، ومستنقعات العراق ، وبادية الجزيرة ، وكهوف اللاجئين ، وازقة بيروت ، وفي كل لحظة من ساعات الزمن.

نيويورك — **عمر حليق**

١ مثال ذلك المجلات التالية وكلها تصدر خارج العالم الانجلوسكسوني وتحتوي مادة سخية من ادب الطليعة ونماذجه القديمة :

The Paris Review Merlin - Points - Botteghi Osedri.

روسيا

اتجاهات جديدة في الادب السوفياتي

تعليقاً على مؤتمر الكتاب السوفيات الذي عقد في موسكو في الشهر الماضي كتب مارك الكسندر Marc Alexander بعنوان « اتجاهات جديدة في الادب السوفياتي » * يقول ما ملخصه :

١ صدر هذا الشهر ترجمة انجليزية لقصة وضعها بالفرنسية كاتب زنجي من غينيا الفرنسية بعنوان « الطفل الاسود » ، سجل فيها صورة حية من المجتمع الزنجي المسلم بطبوله وزموره وعشبه وألوان الوثنية التي تجاوز الاسلام في الجماعات السوداء . وقد تلقت الاوساط الادبية هذا الكاتب بالاعجاب والاكبار . (The Dark Child, by Launara Laye) . وليست هذه اول مرة يجد الادب الزنجي الافريقي سبيله الى ارقى اوساط الغرب الادبية . فلجورج ويلي الزنجي قصة رائعة بعنوان « شغب » مرت الان في طبعتها الثالثة (Riot » by G. Wiyllie) . ولبيتر ابراهام ترجمة ذاتية عن طفولته في القارة السودان عنوانها « قل للحرية »

(Tell Freedom by P. Abraham)

* انظر العدد ٤٣ من مجلة Preuves .

النشاط الثقافي في الغرب

«ليس انعقاد هذا المؤتمر امراً عادياً. فانه لم يعقد قبله للكتاب السوفيات الا مؤتمر واحد في خاركوف منذ عشرين عاماً . وكان يرأسه اندريه جدانوف . ويعتقد بعض المراقبين ان هذا المؤتمر الجديد سيسجل ، كما سجل السابق ، منعطفاً في الادب السوفياتي يكشف عن « توجيه جديد». وقد حدثت في المدة الاخيرة بعض احداث ادبية تدل على طلائع هذا التغير. من ذلك ان اهرنبورغ دعا الى العودة لوضع ١٩٣٩ ، فيما يتعلق بالمراقبة والتقييدات التي اخضع لها الكتاب السوفيات ، وقد تبنى دعوته عدد من النقاد ، في حين ظهرت بعض قصائد واقاصيص وروايات جديدة ، ما كان يمكن ان تمر منذ ثلاثة اعوام مثلاً . إن الكتاب يقدمون الآن على معالجة بعض موضوعات كانت محرمة عليهم في عهد جدانوف ، والنقاد يسخرون اليوم من سائق التراكتور الذي يقص على حبيبته ليلة عرسهما كيف سيقوم بجردة محطة الآت التراكتور .. وقد جرؤت السيدة فيرا بانوفا Panova في روايتها الاخيرة « فصول السنة» على تصوير النتائج المريعة لازمة السكن في احد الاوساط الصناعية ، وثلث ابطال قصتها ليسوا هم بعد « ابطالا ايجابيين » كأولئك الذين كان يطلبهم النقد بالأمس ، وبعضهم لا يبدو الا بمظهر الدجالين النشالين . ولا ريب في ان هذه الرواية هي ، من هذه الناحية، أهم رواية واكثرها واقعية صدرت في السنوات الاخيرة في روسيا.

ولا بد للمرء من ان يتساءل عن هذه التغيرات والام تهدف في الظروف الحالية . ان حدود « التحرر » الجديد تظل ضيقة ، بل ليس من اليسير ان نتبين ما اذا كنا امام حادث عابر طاريء او امام تغير دائم. وقد نتمكن من معرفة ذلك اذا رسمنا مختلف خطوط النمو في الادب السوفياتي بعد ستالين.

لم استطع ان اكتشف الا ثلاثة كتب مكتوبة بعد الحرب الثانية لا تنتهي بنهاية سعيدة : « الطبيب الليوتنان كولونيل » ليوري هرمان Hermann و«قصة عادية» لكنور Knorre و«ايفان ايفانوفيتش» لانطونيا كوبتايفا Koptaïva . وقد وجهت الى الكتابين الاولين انتقادات عنيفة جداً . اما الثالث الذي لا ينتهي نهاية يائسة جداً فلم يكن نصيبه كذلك . كان لا بد من الاعتراف بان الحرب قد خلفت موتى وجرحى ، ولكن كل مبالغة في وصف المصائب والكوارث كانت تقابل بتقطيب الجبين. واذا لم يكن من مأساة في الادب السوفياتي، فذلك لانه ليس في الحياة السوفياتية نفسها مأساة معترف بها . قد يكون هناك موت او مرض او الم او شقاء فردي – ولكن حياة الفرد ذات اهمية ضئيلة بالنسبة للجتمع ومهماته . ولذلك فان الجو المأساوي لا يمكن ان يوجد الا تحت حكم رأسمالي، حيث تضحيات الفرد والآمه عبث لا جدوى منه (الا اذا كان يعيش في إطار الحزب الشيوعي !) . اما في الاتحاد السوفياتي حيث توجه جميع الجهود نحو بناء مجتمع شيوعي ، حتى ولو مات الفرد او اخفق ، فان المجموع يبلغ غايته : ومن ثم يبلغ الفرد نفسه غايته .

اما الملهاة ، فليست اكثر نجاحاً من المأساة . إن الفكاهة ينبغي الا تحتل مكاناً كبيراً في دولة جماعية . وقد مات البطلان الفكاهيان « ايلف » و « بتروف » منذ زمن طويل . والكاتب الوحيد ذو الروح الفكاهية هو نيقولا شبانوف Chpanov ، ولكن فكاهته هي لاارادية الى حد بعيد . وروايتاه « المحاربون » (٩٣٠ص) و «المتآمرون »(٧٩٩ ص) هما « حكاية عصرنا » وفيها يظهر عدد كبير من الوجوه المعروفة ، منذ هتلر حتى ستالين نفسه .

وهكذا نتبين ان « الواقعية السوفياتية » لا تعني، آخر الامر، ما دامت المأساة والملهاة وانواع الصراع مفقودة في الادب السوفياتي، الا الامانة لسياسة الحزب والانسياق لها. على ان هناك طرقاً كثيرة للفرار: فقد ازدهر ادب الاطفال ازدهاراً كبيراً ، وقد كتب عدد من كبار الادباء والشعراء في الاتحاد السوفياتي عن الاطفال ولهم . وكانت النتيجة ان الادب السوفياتي في هذا الميدان يضاهي بل يفوق كل ما يكتب في أدب الغرب . وطريق آخر من طرق الفرار، هو الرواية التاريخية التي انقطع تشجيعها منذ حين، بسبب انها طريق للفرار ! وليس صدفة ان تكون انجح رواية صدرت بعد الحرب هي بعنوان «بعيداً عن موسكو...» . ولا ريب ان هذا الادب الخارجي ذو قيمة كبيرة ، قد يكون « العمل » فيه بدائياً ، والتكنيك الادبي اولياً ، ولكنه ذو حيوية لاهبة دون شك .

وملاحظة اخرى تبرز للعيان : وهي ان اروع الكتب واكثرها تأثيراً من التي صدرت في هذه الاعوام الاخيرة ، هي التي الفتها النساء ، واشهرها قصص الحرب وما بعد الحرب التي الفتها فيرا بانوفا و « الحصاد » لفالينا نيقولايفيا ، وايفان ايفانوفيتش لانطونيا كوبتايفا . على ان الموظفين الادبيين امثال سيمونوف Simonov يكتبون نثراً اجل من نثر هؤلاء المؤلفات ، ولكن آثارهن تظهر اشخاصاً « يعيشون » لان عواطفهم واعمالهم صادقة ، وهذا هو شأن رواية « الحصاد » التي تصور عودة جندي كان قد اعتبر مفقوداً . فرجع من الحرب ليجد رجلاً آخر في سرير زوجته : ان هذا الموقف الكلاسيكي لم يصوره قبل هذه الرواية اي كاتب سوفياتي .

ومثل هذا التطور نجده في بعض آثار الشعراء الشباب. فقد اطلع القراء اخيراً في مجلة « كومسومول » Komsomol نصف الاسبوعية على قصيدة لشاعر شاب عن تجربته الغرامية الاولى التي عرضته « لملامات رديئة في المدرسة » ! ويتحدث الشاعر المعروف ليف اوشانين Ochanine الى قراء مجلة « المرأة السوفياتية » عن الحياة السعيدة التي تنتظر زوجين شابين يحلمان على شاطيء البحر، ولاينبس بكلمة واحدة في هذا الحلم عن اجتماعات الحزب. وبامكان القراء ان يجدوا في المكتبات بعض آثار الكسلندر بلوك Block واسانين Essénine اللذين كان جدانوف قد وضعهما على لائحة المحرم .

والذي نستطيع ان نعرفه الآن هو ان مالنكوف يولي الادب عناية اكبر من التي اولاها اياه جدانوف، فهو لا يود ان يفرض عليه الا رقابة محدودة . وحالة الادب السوفياتي الآن هي حالة الترقب والتربص . إن الجميع ينتظرون نتائج مؤتمر الكتاب السوفياتيين وتوجيهاته الجديدة ، ومعظم الكتاب يأملون في ان يعطوا قدراً اكبر من حرية التفكير والتعبير، ولكن هل تستطيع السلطات ان تنزل عند هذه الرغبة التي قد تفضي الى دك الاسس الايديولوجية للنظام ؟ إن الذين يستطيعون ان يجيبوا عن هذه الاسئلة هم قادة الحزب ، لا الكتاب السوفياتيون . إن هذه قضية تتعلق بالدولة ، لا بالأدب ! »

النشاط الثقافي في الغرب

انكلترا

رسالة من توفيق صايغ

امتاز المشهد الثقافي ، منذ بعثت لكم برسالتي الماضية ، بعدد من العواصف الكاسحة ، أثارها التفكير الجماهيري على الفنون والآداب في زيها المعاصر.

فن حديث ... أم قذارة !

خلال الشهرين الماضيين اقام معهد الفنون المعاصرة للكولاج ، يضم قطعاً لفنانين من مختلف انحاء اوروبا ، هي خيرة نتاج هذا الضرب من الفن منذ ظهر قبل ٤٠ سنة للوجود .

وكان أبرز ما في المعرض جناح فيه مجموعة لوحات تنكية رسمها (والاصح ان أقول « صنعها ») الفنان الاسباني الطريف سلفادور دالي Dali في ١٩٣٠ ، كانت هي مدعاة الثورة ، التي تعدت دالي ذاته الى المعرض بكامله فالى الفن الحديث بأسره. وتزعمت الثورة جريدة « ديلي سكتش » ، وهي جريدة شعبية تعيش على سرد الاخبار والقصص المثيرة وتتخصص بعرض المفاسد عرضاً سطحيته الوعظ وباطنه الاثارة، فقامت الآن تنصب ذاتها حامية النشء الانكليزي البريء من مفاسد الفن الحديث ، مدافعة عن النظافة و« الذوق السليم » و « الاخلاق العامة » ، واتخذت حملتها صفة مقالات متسلسلة لاحد محرريها ، جاء في احداها : « سيفتتح في لندن عما قريب معرض للفن ، إذا صح ان نسمي هذه القاذورات فناً . هو أقرف معرض رأيته في حياتي . ولن استغرب ابداً اذا وصل لسمعي في الساعات القليلة القادمة ان البوليس داهم مقره واقفله : فلو ان هذه الجريدة نشرت شيئاً يشبه ولو من بعيد الرسوم المعروضة لاغلقت الى غير رجعة ، ولو ان فيلماً سينمائياً حوى مشاهد كالتي تصورها اللوحات لمنعته المراقبة ، لكن اي طفل سيستطيع منذ الغد ان يذهب الى المعهد اذا ما دفع الرسم الزهيد ويشهد هذا كله.» ونعى المحرر على قطع دالي انها مكشوفة صريحة ، تصرح في عرضها لجسد المرأة بكل شيء « ولا تترك مجالا للخيال . » واختتم احدى مقالاته بقوله: «ومهما قال خبراء الفن وادعوا ، فان قطع دالي ليست فناً ، ولست ارى فيها إلا قاذورات واضحة غير مقنعة . واني اشعر بالاسف نحو الفنانين الآخرين الذين ستظهر لوحاتهم الى جوارها . واكرر : ان هذا المعرض الذي يساهم الشعب في ميزانيته يجب ان يفتتح للعموم قبل ان تنزع قطع دالي ويقفل عليها في صندوق مختوم . »

واقترح المعهد ان تعلق المجموعة على علو عشرة اقدام فلا تنسى رؤية التفاصيل فيها بوضوح، لكن الجريدة التي تبلغ سعة انتشارها ثلاثة اضعاف « النايمز » رفضت العرض وتابعت الحملة ، واتصلت بالهيئات المختلفة، وجندت معها مجلس الآداب العامة ، مما اضطر ادارة المعهد الى التسليم وسحب صور دالي من المعرض ، وحمل المحرر على ان يصرح في مقاله الاخير: «لقد سُحب دالي – لقد انتصرت الحشمة والذوق السليم . »

بقي ان نقول ان هذه الجريدة التي أقامت ذاتها حامية الفضيلة والاخلاق العامة ، لم تستنكف اثناء الدفاع عنهما عن نشر التفاصيل الفضفاضة عن الكاهن الذي اقتيد للمحاكمة لتحرشه بثلاث نسوة مسنات في باص ، وعن الفتى السادي الذي اعتدى جنسياً على فتاتين رفتي وأسامهم عذاباً لا يصدق، وعن اللورد الشيخ الذي اعترف باتصاله بشابين في عمر احفاده ، وعن غيرهم وغيرهم ، وأن نقول ان هذه الجريدة التي رأت لزاماً عليها ان تحمي الشبيبة من الذهاب الى المعهد والتفرج على رسوم الجسد العاري ، لم تر لزاماً عليها ان تحميهم من خطر آخر : فلم يخطر ببالها قط ان تذكر ان هؤلاء الفتية لا بد لهم، اذا ما توجهوا للمعهد ، ان يمروا ، قبل الوصول اليه ومن اي طريق جاءوه، بعشرات من زهرات الليل البليلة ، المعششات في هذه المنطقة الثقافية!

صورة تشرشل من غير هالة

منذ احتفلت انكلترا في آخر تشرين الثاني بعيد تشرشل الثمانين، تنوسيت احداث اليوم ، كالاحتفالات العديدة وخطاب العرش والتصريحات السياسية، لكن شيئاً واحداً لم تستطع الصحافة او الشعب ان تتناساه : صورة تشرشل التي رسمها غراهم سظرلند Sutherland .

فقد عهد أعضاء البرلمان الى سظرلند برسم صورة لصاحب العيد لتقديمها اليه باسمهم . وسظرلند من اشهر فناني انكلترا واشدهم غلواً في منحاه الحديث ، وهو ليس من مصوري الاشخاص ، ولم يسبق له ان رسم الا اثنين ، هما صمرست موم واللورد بفربروك .

رفع الستار عن الصورة نهار العيد، فصعقت الحضور هذه اللوحة الصفراء الخردلية للرجل الهرم المنوثب، المقطوع الرجلين، المجرد من الهالة السحرية الخالدة الشباب التي يحاول المحافظون إحاطة رأسه بها ، وأصغوا لتشرشل يشكرهم على الهدية التي قبل انه ظل متردداً ثلاثة ايام في قبولها او رفضها، ويصفها بأنها «مثال عظيم للفن الحديث» – لكن من يعرف رأي تشرشل في الفن الحديث ، ويذكر ما قاله عنه قبل عام من انه قطيع غنم من غير راع، يدرك انه قصد ان يهاجم الصورة دون ان يخرج عن حدود اللياقة. وما ان خرج تشرشل من القاعة، وتركت الصورة معروضة مدة ساعة حتى احتدم الجدال وثار النواب (الذين يأبون على الفنانين ان يتدخلوا في مشاكل السياسة لكن يسمحون لانفسهم بالتدخل في مشاكل الفن)، وارتفع صوت اللورد هيلشام يصف الصورة بانها « مخزية ومقرفة » وانها وصاحبها «يجب ان يلقيا في التيمس» .ويردف انها اهانة للسير ونستون وللشعب : فانها تظهره رجلاً مسناً قاسياً لئيماً وصل آخر المطاف في حياته . لقد بالغ الفنان في إساءة تصوير السير ونستون وعجز عن اظهار خصلته الرئيسية : « الرفعة والنبل ». وقالت زوجة بيفان وهي ذاتها عضو في المجلس: « اني معجبة بالصورة كل الاعجاب، وان اللوحات الناجحة هي دوماً مثار جدال». واشترك معظم النواب بعدهما بالنقاش .

وانتقل الهرج والمرج الى الصحافة والقراء ، فترامت عشرات الرسائل كل يوم الى كل جريدة في البلاد ، فبعضها تحبيذ ومديح ومعظمها مهاجمة قاسية وتقريع ، وسلطت الجرائد على الفنان ولوحته السنة حداداً ! ومن امتع التعليقات ما قاله احد النواب: استطيع بعد تفكير طويل ان اقول اني اطأطىء الرأس خجلاً من تلك الصورة: فانا اعتقد انها لوحة عظيمة، وانها في غضون قرن او نصف قرن ستعتبر اعظم صورة انتجت هذا القرن – لكني لا اعتقد ان اعضاء المجلس كان هدفهم ان ينتج الفنان الذي انتدبوه اعظم لوحة في القرن ، بل ان يشتروا صورة ليهدوها لرجل في الثمانين من عمره ، صورة يكون هو راضياً عنها » – وهو تعليق لم يكن ليصدر ، كما ترى ، إلا من عضو في برلمان .

النشاط الثقافي في الغرب

بعد ان خفتت هذه التصريحات البرلمانية والجماهيرية المتسرعة ، وأغلبها من أشخاص رأوا صوراً فوتوغرافية للوحة لا اللوحة ذاتهـا ، عكف النقاد على درسها ، وخرجوا من ذلك الدرس باطراء للفنان وللوحة ، معتبرين انها طرفة اصيلة . فما قاله أريك نيوتن، اكبر ناقد فني في انكلترا: « في رأيي انها صورة عظيمة ، تستطيع كلوحة وكصورة أن تضاهي أحسن رسوم فيلاسكويه ورمبرانت وغويا ... انها صورة رجل عظيم ، لكنها ليست مغناطيساً يجذب محبي عبادة الابطال ... ان العصور المقبلة سترى فيها آية فنية نتجت عن لقاء فنان دقيق الملاحظة لانسان آخر أشعل مخيلته الخلاقة— وانها لهذه الشرارة الكهربائية التي تنطلق من الرجل المصوّر الى الرسام المصور ، التي لها يعود الفضل في نجاح جميع الصور العظيمة .» وعلق أوزبرت لانكستر Lancaster على ان عدم رضى الجمهور وموضوع الصورة عنها لا يضيرها شيئاً ، فقال ان حاشية هنري الثامن وصحبه لا شك انهم لم يرضوا بصورة هولباين له ، وان فيلاسكويه لم يعر اي اهتمام للذين ارادوه ان يضع هالة حول إنوسنت العاشر ، وإن صورة مانيه لكليانصو هوجمت بمثل ما هوجمت به صورة صظرلند لنشرشل .

أما صظرلند ذاته فكان قد تنبأ قبـل ان يزاح الستار عن الصورة بقوله : « اني اتوقع انتقاداً لهـذه الصورة ، لاني اظن ان فكرتي عن السير ونستون تختلف تمام الاختلاف عن فكرة الرجل العادي ، رجـل الشارع ، عنه ... اني رسمت ما رأيت . فانا لا اصور صوراً حـلوة ، هادفاً الى مجرد كسب الاعجـاب » . لكنه بعد ان ازيح الستار وثار اللغط والنقاش وصاح هيلشام مقترحاً رميه والصورة في النهر ، سئل عن رأيه في هذه الحملات النقدية ، فأجاب بكل براءة : « النقد ؟ إني لم أسمع أي نقد . »

١٩٨٤ ضد ١٩٥٤

« ١٩٨٤ » قصة كتبها جورج أورويل Orwell في ١٩٤٩ وكانت أشهر مؤلفاته وآخر ما كتبه قبل وفاته في مطلع ١٩٥٠ . وهي وصف لانكلترا كما تخيل المؤلف انها ستكون بعد ثلاثين سنة من الوقت الحاضر ، وصف لانكلترا جديدة وقد سادها الحكم الدكتاتوري التعسفي الرهيب، وقضي فيها على الفرد والانسان العادي قضاء مبرمـاً ، وديست الحرية بمختلف مظاهرها ، وتولى النـاس الهلع والخوف من رقيب لا يعرفونه لكنهم يشككون حتى في اقرب مخلوق اليهم ان يكونه ، وحرم الحب واضحى جريمة . كتاب هائل يأخذ بمجامع القارىء لكنه يلقي الرعب في قلبه . واذا ما كانت قراءة الكتاب تلقي الرعب ، فما عساها تحدث مشاهدة حوادثه في المتفرج ؟

الجواب على هذا التساؤل جاء في اواسط كانون عندما قـامت شعبة التلفزيون في مصلحة الاذاعة البريطانية بعرض الكتاب كمسرحية . فلم يكن قد مضى غير دقائق قليلة على بدء العرض حتى انشغلت جميع الخطوط التلفونية لمصلحة الاذاعة ، وتوالت الاحتجاجات على عرض هذه التمثيلية بالذات . ويعتقد ان السياسة لعبت دوراً في رد فعل المتفرجين هذا ، وان الشيوعيين الذين ادركوا ان الدكتاتورية التي عناهـا اورويل هي المتمثلة في الوقت الحـاضر في الدكتاتورية الشيوعية ، كانوا من وراء الاحتجاجات ، بدليل انها بدأت تنبعث في الجزء الاول من المسرحية ، قبل ان تبـدأ مشاهد القسوة والعنف التي كانت مبعث الاحتجاج .

واهتمت الصحافة بالموضوع وقد تراكمت عليها رسائـل القراء ، واختلفت الجرائد بين حاملة على مصلحة الاذاعة لعرضها مسرحية يلعب فيها العنف دوراً كبيراً ، كمشاهد التعذيب والعرق والدم والفئران والتابوت وسواها ، ومشاهد الحب الميكانيكي المكشوف ، حاملة عليها لهذا ولانها اثارت الفزع في النفوس ، وأدت الى اصابة احدى المتفرجات بنوبة قضت على حياتها، ولان هذا كله حدث في يوم احد،اليوم الذي يأمل المتفرجون فيه ان يروا مسرحيات هادئة ناعمة ، مبهجة الخاتمة ، تدغدغ احلامهم ، لا مسرحيات شرسة ، فاجعة الخاتمة ، تحرمهم الاحـلام والنوم الذي يجلب الاحلام . اختلفت الجرائد بين حاملة على مصلحة الاذاعة ، وهي الاكثر عدداً ، وبين بعض منها مدافعة عنها مهنئة لها على جرأتهـا وعلى حسن عرضها للكتاب . وحمل مادته ورسالته الى المتفرجين وهم ملايين بعـد ان كانت مقصورة على قرائه وهم آلاف . وتقدم عـدد من النواب بمشروع قرار للبرلمان يطـالبون فيه بمنع الاذاعة من تقديم تمثيليات من النوع المخيف ، كما تقدم عدد آخر بمشروع قرار مضاد يرمي الى تعزيزها . وكان سؤال جميع الاوساط : ماذا تقول مصلحة الاذاعة ذاتها ؟ وهل تعيد عرض التمثيلية بدون حذف او تحوير مساء الخميس كما كان مقرراً ؟

وأعلن مدير الاذاعة بحزم ان التمثيلية ستعاد دونما ادنى تعديل.وذكر معارضيه بان الاذاعة سبق فنبهت المتفرجين ان يبعدوا الشيوخ والاطفال عن الاجهزة ليلة العرض ، وان المكالمات والرسائل التي استلمها كان كثير منها محبذاً ، وانه كمادته لن يعير اهتماماً للمكالمات والرسائل ، للمعارضة منها او للمناصرة .وقال ان هدف الاذاعة من العرض كان ان تنقل للمتفرجين القصه التي ضمها كتاب « ١٩٨٤ » الذي وصف بانه الطرفة الادبية لواحد من اعظم كتابنا في هذا العصر .

وجاءت ليلة الخميس ، واعيد عرض التمثيلية بكاملها . وعاد النقاش من جديد .

هذه المجلة

طبعت في مطابع « الآداب » الـتي تعلن استعدادها لطبـع الكتب والمجلات والنشرات التجارية طبعاً أنيقاً وسريعاً ، على آلاتها الاوتوماتيكية .

بيروت — الخندق الغميق — شارع الشدياق

ص. ب ١٠٨٥ تلفون ٢٦٩٩٦